5
رقم
دکتور
بقدونس

رقم 5

دكتور بقدونس

1

الطريق إلى الجامعة كان طويلاً، مغلفًا بضـباب خفيف كأن الهواء نفسـه لا يرحب بالوافدين. جلس الدكتور سـامر خلف المقود، سـاكتًا، لا موسـيقى، لا راديو. فقط صوت دوران العجلات فوق الإسفلت البارد، كنبض ميتٍ يتكرر.

لقد غادر المدينة. أخذ إجازة من العمل، من زملائه المتكررين، من وجوه الطلاب الشاحبة، من صخب المقاهي، من نفسه.

الجامعة القديمة في الشمال كانت محطته الأخيرة، ليست حنينًا للماضي، بل بحثًا عن سكون يحفظ ما تبقى من وعيه المتعب.

استقبله الحارس عند البوابة بإيماءة صامتة. لم يتغير شيء هنا، سوى أن الأشجار أصبحت أطول، أغمق، كأنها تنظر إلى الداخل لا الخارج.

اسـتلم غرفته في السـكن الجامعي القديم. الغرفة رقم 5، جدرانها مطلية بلون باهت،
والهواء فيها راكد كأنها لم تُفتح منذ سـنوات. وضع حقيبته جانبًا، وغسـل وجهه، ثم جلس قرب النافذة. من هناك، كان يراها.

الشجرة.

واحدة فقط. ضخمة، أكثر من اللازم، تقف في وسط الحديقة الخلفية. أوراقها لا تتحرك رغم الريح. ترابها دائري، خالٍ من العشب، كأن الأرض تحتها ماتت منذ زمن.

في اليوم التالي، بدأ التدريس. بعد خمسة أيام، القاعة نفسها. المقاعد نفسها. لكن في الزاوية الخلفية، جلست فتاة لم يرها من قبل. شاحبة، هادئة، تبتسم دون سبب.

وعندما سأل عن اسمها، لم يُجبه أحد.
وحين انتهى الدرس، خرجت قبل الجميع، بخفة لم تلحظها إلا عين مرهقة.
وفي المساء، سمع طرقًا خفيفًا على الباب.
فتح.

لم يكن هناك أحد.
لكن على الأرض، كان هناك لسان ورقي، مقطوع من كتاب، مكتوب عليه:

"لا تقترب من الشجرة".

2

في اليوم الثالث، تأخر الغروب. بدا وكأن الشمس ترفض الرحيل، مترددة في تسليم السماء لشيء آخر، أعمق، وأكثر صمتًا. وقف الدكتور سامر أمام النافذة، يشرب قهوته ببطء، حين لمحها.

كانت الفتاة نفسها. في الحديقة.

لكنها لم تكن تسير.

كانت تركض. على أربع.

مثل كلب.

لم يصدق عينيه. ظنّها تائهة، تلعب، تمثل... حتى اقتربت من الشجرة. هناك، توقفت فجأة، وبدأت بالدوران حول جذعها. ثم جثت على الأرض، وأخرجت لسانها، وأطلقت نباحًا قصيرًا. نباحًا لم يكن تقليدًا بشريًا، بل نباحًا حقيقيًا، كأن الحنجرة التي أطلقت الصوت لا تنتمي لإنسان.

تراجع سامر خطوة للوراء، كأن الأرض تحت قدميه تحولت إلى مياه.

لكنها لاحظته.

توقفت عن الدوران. حدّقت به.

ثم بدأت تركض نحوه، على أربع، عيناها تلمعان بلون غير مألوف.

في ثوانٍ، كانت بجانبه.

ثم...

لعقت حذاءه.

لم يتجرأ على الحركة. لم يشعر بساقيه.

كانت تلهث.

تنظر إليه، بعينين لا تنتميان لجنسه.

ثم، دون مقدمات، توقفت. رفعت رأسها، وقفت على قدميها، وغادرت. وكأن شيئًا لم يكن.

في الليل، لم ينم.

حاول التبرير: ربما خدعة، مرض نفسي، هلوسة... لكنه لم يكن أحمق.

في الصباح، سأل زميله القديم، الدكتور ناصر، وهو رجل جاف لا يميل للثرثرة:

"في طالبة شقراء، رفيعة، ما اسمها؟"

نظر إليه ناصر باستغراب.

"عن أي طالبة تتحدث؟ شقراء؟ كلهن جعفر هنا؟"

"التي حضرت المحاضرة أول أمس، وجلست في الزاوية، لم تتكلم."

ناصر صمت،

ثم قال: "سامر... تلك الزاوية فارغة منذ بداية الفصل."

3

في مكتبه في الطابق الثالث، جلس الدكتور ســـامر يحاول أن يقنع نفســـه بالمنطق، بالعلم، بالتفسـير النفسـي. لكنه فشـل. الفتاة التي نبحَت، التي لعقت حذاءه، كانت حقيقة.

شعر بأنفاسها. رأى نظرتها. لم يكن خيالًا.

فتح درج مكتبه ليرتاح في أعماقه إلى أي روتين. لكنّه وجد شيئًا لم يضعه هناك.

ورقة مطوية بعناية.

فتحها، يداه ترتجفان.

الخط كان بدائيًا، غير متوازن، كُتب بقلم أحمر باهت، وكأنه كُتب بأصبع جريح.

"هل تحب الكلاب، دكتور سامر؟ نحن نحبك. الشجرة تتذكرك."

تجمدت عروقه.

قرأ الجملة مرتين، ثلاثًا، ثم أعاد طي الورقة ببطء كمن يطوي جلده.

نهض. ذهب فورًا إلى مكتب الأمن.

"من دخل مكتبي؟"

"لا أحد، دكتور. أنت الوحيد الذي يملك المفتاح."

لكنه لم يصدّقهم.

في طريقه إلى الخارج، مرّ من أمام الحديقة. هناك، تحت ظلال الشـجرة القديمة، رأى الطالبة. كانت جالسة القرفصاء، تقرأ كتابًا مقلوبًا.
اقترب بحذر، لكنه لم يقل شيئًا.

رفعت عينيها، وابتسمت.
ابتسامة لم تكن غريبة.

لقد رآها من قبل. في صورة قديمة. في بيته.
عاد للمنزل بسـرعة جنونية، سـيارته كادت تطير. بحث في الصـندوق الخشـبي الذي تركته له أمه قبل موتها.

في الأسفل، بين الصور القديمة، وجد ما كان يخشاه.
صورة جماعية لطلاب الجامعة، عام 1982.
وفي الصف الأول، بجانب والدته...
كانت هي.

الشعر نفسه. الابتسامة ذاتها. النظرة المستقرة غير البشرية.
وكان مكتوبًا خلف الصورة بخط والدته:
"هذه هي **عايدة**. لا تنظر في عينيها طويلًا."

4

لم ينم تلك الليلة.

ظل جالسًـا في الصـالة، والصـورة بيده، يحدق في وجه عايدة كمن يحدق في جرح قديم عاد لينزف دون إنذار.

لماذا لم تذكرها أمه؟

لماذا لم يتحدث عنها أحد؟

ولماذا لا تشيخ؟

في الصـباح الباكر، عاد إلى الجامعة قبل الجميع، متوجهًا إلى أرشـيف الكلية. طلب ملفات الطلاب للعام 1982.

أخذ يقلب الصفحات بعينين ملتهبتين من الأرق.

وحين وصل إلى حرف العين...

لم يجد اسمها.

لم تكن هناك "عايدة". لا طالبة بهذا الاسم. ولا حتى كموظفة.

عاد إلى الحديقة.

الشجرة كانت تقف كحارسة قديمة، عارية من كل شيء سوى السكون.

اقترب منها، وهو يشعر بشيء يراقبه من الداخل.

حين لمس جذعها، شعر بنبضٍ خافت.

كأنها تنفّست من تحت جلده.

وفجأة...

سمع خلفه صوت خطوات.

بطيئة.

ناعمة.

متكررة.

استدار.

كانت هي.

لكن هذه المرة لم تكن تبتسم.

كانت تنظر إليه بنظرة فارغة. كأن أحدهم يحركها من الداخل. كأنها دمية من لحم، تسكنها نية لا يشبهها أي نية بشرية.

قالت بصوت منخفض، كأن الريح تتحدث:

"الشجرة لم تنسك. كنت هنا، صغيرًا. بكيت تحتها. وهي التهمت دموعك."

تراجع.

"أنا؟ لم... أكن هنا من قبل!"

ضحكت.

ضحكة خالية من الصوت. مليئة بالصدى.

ثم ركضت نحوه ككلب، على أربع، تلهث.

لكنها لم تلمسه. بل دارت حوله مرتين، ثم شمّت الأرض، وهمست:

"لن تكون آخر من يلعق التراب هنا."

ثم انطلقت راكضة إلى عمق الحديقة، واختفت خلف الشجرة.

في الليل، سمع خربشة تحت نافذته.

فتح الستارة ببطء.

كانت هناك، على الحائط المقابل، تمشي على أربع، تنظر إليه من بعيد.

توقفت، ثم رفعت يدها — أو مخلبها؟ — وكتبت على الإسمنت بإصبعها:

"رجعت."

ثم زحفت على الجدار ..

كأن الجاذبية فقدت سلطتها عليها... ودخلت الظلام.

5

في صباح اليوم التالي، وقف الدكتور سامر أمام القاعة محاولًا أن يبدأ المحاضرة.

لكن شيئًا ما كان ناقصًا.

الهواء نفسه لا يتحرك كما اعتاد، والضوء النافذ من الشبابيك لم يعد مطمئنًا.

نظر إلى طلابه.

كانوا أقل من المعتاد.

أو هكذا ظن.

بعض الوجوه، رغم أنها مألوفة، بدت مشوشة... كأن العيون لا تطابق الأجساد.

أخرج دفتر الحضور، وبدأ بمناداة الأسماء.

لكن في كل مرة ينطق باسم، يشعر أن صوته يتردّد داخل رأسه، لا في القاعة.

"سارة يوسف؟"

لا رد.

"ليلى؟"

صمت.

ثم رفع عينيه...

وجدهم جميعًا ينظرون إليه. ليس بنظرة اهتمام.

بل بثبات تام، لا رمشة فيه، لا تنفس، لا حركة.

قال:

"هل هناك مشكلة؟"

فجأة، انفجرت إحدى الطالبات في الضحك.

ضحك صاخب، منفلت، كالذي يخرج من فم لا يعرف الكبح.

كانت هي.

الفتاة الكلب.

لكنها اليوم كانت تجلس كطالبة عادية، تحمل دفتراً، ترتدي حذاءً.

فقط... كانت تلحس القلم بلسان طويل بشكل مريب.

همس أحد الطلاب في الخلف:

"دكتور...لايوجد أحد في هذا الكرسي ..."

نظر إلى الكرسي حيث كانت تجلس.

كان فارغًا.

لكنه ما زال يراها.

تبتسم.

وتنبح بصوت لا يسمعه أحد سواه.

ثم قالت بصوت بدا داخليًا:

"أخبرتك... الشـجرة لم تنســك. الذين تراهم الآن؟ نصــفهم ليســوا هنا. والنصــف الآخر... تحت الأرض."

فجأة، سقطت الإضاءة من السقف، وانقطع التيار.

والقاعة غمرها ظلام مؤقت.

لكن في الظلام... لمحهم. وجوه غريبة، قديمة، ميتة. تجلس على المقاعد.

تصغي.

تنتظر.

خرج مسرعا من القاعة, وظهره منقوع بالعرق.

6

بعد تلك المحاضرة المشؤومة، أقنع نفسه أنها مجرد أوهام.

قلة نوم، ضغط العمل، وربما... شيء عالق من الماضي لم يُهضم بعد.

لكنه لم يرجع إلى بيته.

قاد سيارته بلا وجهة حتى وجد نفسه في أقدم مباني الجامعة:

المكتبة القديمة.

مبنى حجري، مدفون جزئياً بين الأشـجار، لا يرتاده أحد منذ سـنوات بعد بناء المكتبة الرقمية الجديدة.

لكنه شعر بشيء يشدّه إليها.

كما لو أن اسمه مكتوبٌ بين الكتب.

دفع الباب الخشبي الثقيل.

صريره كان كأنين ميتٍ نسي أن يتوقف.

المكان مظلم، خانق، تفوح منه رائحة الورق المتعفن والجلد المحترق.

لكن كانت هناك إضاءة خافتة من الداخل.

خطا ببطء... الأرضية تلين تحت قدميه، لا تشبه البلاط المعتاد.

ركع ولمسها.

جلد.

كانت الأرض مغطاة بطبقة داكنة من جلدٍ حيّ، دافئ النبض.

لكن الأهم: رفوف الكتب.

كل رف كان ينبض. لم تكن خشبية. بل أضلاع.

قفص صدري ممتدّ، ينزّ من أطرافه لحم طري، وكل كتاب مغروز فيه كأنما يغذّيه.

اقترب من أحد الكتب.

سُحِبَ تلقائيًا من الرف، وتفتّحت صفحاته وحدها.

بلا عنوان، بلا مؤلف.

لكن أول جملة كانت كافية.

"سامر عبد المجيد، مواليد 1977، مات في 2025، لكنه لم يُدفن."

ارتد للخلف، قلبه يدق كطبول الجنائز.

سمع شهقة خلفه.

كانت الطالبة.

الفتاة الكلب.

لكنها لم تكن على أربع هذه المرة، بل معلّقة من السقف، تتدلّى من خيوط شفافة، كعنكبوت بشري، تبتسم.

قالت:

"المعرفة هنا لا تُقرأ... تُلتَهَم."

ثم... انطفأت الإضاءة.

7

استفاق سامر على أرض المكتبة، وجهه مبلل، ليس عرقًا، بل لعاب.

كانت آثار اللسان لا تزال على عنقه.

أنفاس الكلب... لا تزال في صدره.

نهض مترنّحًا، لا يدري كم مرّ من الوقت.

المكتبة كانت خاوية، بلا جلد، بلا لحم، بلا فتاة.

عاد إلى سكنه الجامعي، وهناك كانت الرسائل تنتظره.

رسائل من القسم، من الإدارة، من الشرطة.

طالب آخر اختفى.

اسمه خالد ياسين.

شاب هادئ، كان يحضر كل محاضرات سامر، يجلس في الصف الثاني، يدون بصمت، يهرب بعينيه من الضوء.

آخر ما شوهد فيه، كان في الحديقة.

تحت الشجرة القديمة.

في اليوم التالي، قرر سامر كسر حاجز الخوف.

دخل الحديقة في وضح النهار.

كل شيء كان عاديًا... حتى اقترب منها.

الشجرة.

ليست كبيرة، لكنها أقدم من الجامعة نفسها.

جذعها أعوج كظهر عجوز، لحاؤها أسود، كأن النار لم تحرقه بل تبنّته.

هناك شيء مدفون تحتها، شعر بذلك لا بعينيه، بل بعظامه.

أخرج من جيبه أداة حفر صغيرة، وبدأ يزيل التراب.

حفنة بعد حفنة.

ثم سمع صوتًا.

"تحفر قبرك يا دكتور؟"

التفت، وإذا بالفتاة.

نفسها.

لكنها هذه المرة ترتدي معطفًا جامعيًا مخصص لطلاب القسم النفسي.

عيناها عاديتان... تقريبًا.

قالت، بهمس كمن يقرأ من ورقة:

"أنا كنت أول من زرعوها... زرعتهم تحتها."

رفع حفنة تراب أخرى.

وظهرت أظافر بشرية. ثم عين مفتوحة. تحدّق فيه.

لكنها لا تنتمي لأحد حي.

قالت الفتاة:

"كل من درّس هنا... انتهى هنا."

تراجع سامر.

فإذا بالشجرة تهمس.

نعم، تهمس.

صوتها يشبه صوت أمه في المنام، حين كانت تبكي بصمت.

قالت:

"أعدني إليهم، سامر."

8

ظلّ سامر واقفًا.

التراب على يديه، نبض قلبه في أذنيه، وعين لا تنتمي لهذا العالم تحدق فيه من باطن الأرض.

الشجرة لم تصمت.

همسها تسرّب إلى داخله، تسلل كالدخان إلى رئتيه،

فجأة تذكّر لحظة ولادته — أو هكذا خُيّل له —

صرخة، دم، ثم ظلام دافئ.

تراجع.

الفتاة ما زالت واقفة هناك، تبتسم بابتسامة لم تُخلق للوجوه البشرية.

قالت:

"هي لا تؤذي من تحبّهم. فقط... تعيدهم إلى أصلهم."

سألها، صوته مكسور:

"من أنتِ؟"

ضحكت. لكن الضحكة لم تكن لها.

بل كانت ضحكة خالته الميتة.

ثم أستاذه في المرحلة الابتدائية.

ثم ضحكته هو — لكنه لم يضحك.

قالت:

"أنا ظلّك يا سامر. تلك النسخة التي خلّفتها في كل من نسيتهم...

أنا التي جئتَ إليها حين أغلقت الباب على والديك وقلت لن تعود."

رفع سامر يده ليمسح عرقه.

يده كانت ترتجف.

نظر إلى الشجرة مجددًا.

الجذع لم يكن كما ظنه. لم يكن جذعًا.

بل عمود فقري بشري متخشب.

الفروع: أصابع.

الجذور: أضلاع.

قالت الفتاة:

"كل من أنكر دمه، كل من دفن ذاكرته، أتت إليه.

أنت جئت من تلقاء نفسك."

قال لها:

"لم آتِ إليك. أتيتُ للعمل، للتدريس."

ابتسمت:

"لا، أتيتَ لتنسى."

تقدّمت نحوه ببطء. جلست على أربع مجددًا.

لكنه لم يعد يرى فتاة.

كان يرى كلبًا.

ثم جثة.

ثم نفسه.

قالت الشجرة بصوت لا يُسمع إلا في الداخل:

"ادفنها أو ادفن نفسك."

9

لم يصرخ سامر. لم يركض. لم يتكلم.

الهواء كان أثقل من رئتيه.

والأرض، مع كل خطوة، كانت تبدو كأنها تنكمش، تُسـحب من تحت قدميه مثل بساط بغيض.

الفتاة – الكلب – الظل، ما زالت تحدق، تنتظر.

وفي يده... مجرفة.

لم يتذكر من أين أتت. ربما كانت هناك دائمًا.

ربما كانت في يده منذ أن وصل الجامعة.

أو منذ وُلِد.

اقترب من الشجرة، والجذور تنحني له كأنها تدعوه.

كأنها تهمس:

"هنا. هنا البداية."

الحفرة الأولى لم تكن عميقة.

التراب كان رطبًا، يشبه اللحم.

وفي كل حفنة، رائحة صدئة، كأن أحدهم نزف هنا.

حفرة ثانية. ثم ثالثة.

في الظلام، لم يكن يرى بوضوح.

لكن حين اصطدمت المجرفة بشيء قاسٍ، توقف.

حفر بيده. جذب ما وجده.

كان صندوقًا خشبيًا صغيرًا، مغطى بقماش متعفن. فتحه.

داخله... لم تكن جثة.

ولا وثائق.

بل مرآة.

مغبرة، مشروخة من الزاوية. رفعها.

ورأى نفسه. لكن ليس كما هو الآن. رآه كما كان قبل سنوات.

صبيًا يختبئ خلف باب المطبخ، يراقب أمه تبكي.

رآه يسرق دفتر والده، يحاول تقليد توقيعه.

رآه يكذب، يخون، يهرب، يدفن.

ثم — انكسرت المرآة في يده.

الخدش على كفه لم يكن عميقًا، لكنه نزف.

والدم... حين لامس الجذور، اهتزت الشجرة.

ورأى الفتاة تزحف نحوه من جديد.

لكنها لم تعد تبتسم.

قالت بصوت غريب، مركّب من آلاف الأصوات:

"حين يُفتح الصـــندوق، لا يعود شـــيء كما كان. وحين ترى نفســـك، لا يمكنك أن تعود."

ثم نَبَحت.

نبحة واحدة، قوية، اخترقت جسده حتى النخاع.

تراجع سامر.

وقع.

الغصن الذي أمسك به لم يكن غصنًا، بل ذراعًا بشرية خرجت من الجذع.

أمسكته. شدّته.

قالت الشجرة:

"ادخل."

10

في الظلام المكتوم تحت الأرض، لم يكن هناك تراب.

بل لحم. نابض. رطب.

ينكمش كلما تحرك سامر، كأنه يبتلعه ببطء وبسخرية.

كان الجذر الملتف حول ساقه لا يشدّه، بل يحتضنه.

كأن الشجرة لا تريده أن يموت، بل أن يبقى.

أن يعيش تحتها.

أن يصبح جزءًا من تربتها.

صوتٌ انفتح فوقه.

كأن بابًا يُفتح في السماء. ومن الأعلى، نظرت إليه الفتاة.

لم تعد تشبه الإنسان.

ذراعاها أطول.

عينها الواحدة وسط الجبهة.

وفمها... كان في مكان أنفها.

قالت:

"كل الذين حاولوا الفرار عادوا. لكن أنت... أنت ستبقى."

سامر لم يصرخ. لكنه تمنى أن يفعل.

تمنى أن يموت، أن يستيقظ، أن يستيقظ حتى على جنونه.

لكن الشجرة لم تكن حُلمًا. ولا الجامعة. بل بوابة.

الجذور تسللت إلى جسده.

أظافرها انغرست في فروة رأسه.

رأى حياته تعاد أمامه — لا بالصور، بل بالذوق.

تذوق خيباته.

تذوق كل كذبة قالها.

كل مرة خان نفسه، كل مرة خاف ولم يعترف.

وفي لحظة، كان كل شيء ساكنًا.

ثم ... انفجرت الأرض.

الشرطة، حين وصلت في اليوم التالي، لم تجد شيئًا.

لا جثة.

لا شجرة.

ولا حتى جامعة.

فقط قطعة أرض محروقة، وسطها كلمة محفورة في الصخر.

أما الفتاة، فقد شوهدت لاحقًا — تسير على أربع،

تضحك،

تلعق الأرض،

ثم تختفي في الغروب.

الجزء الثاني

1

عاد نادر من عمله كالمعتاد، في الخامسة والنصف، بعد يوم ممل في الطابق التاسع من شركة تعِدُ بالكثير وتدفع بالقليل. توقف عند البقالة، اشترى كيلو سكر، ثم عبر الزقاق المختصر الذي يمرّ بين مبنيين عتيقين. كان يعرف هذا الطريق كما يعرف خريطة يده، لكن في تلك اللحظة—وقف هناك.

الرجل.

كأنه خرج من لا مكان.
يرتدي معطفًا رماديًا رقيقًا لا يناسب برودة هذه الليلة، ووجهه... أو بالأحرى، عدم وجهه. لم يكن هناك فم، لا عينان، لا أنف. فقط جلد مشدود كقناع مطاطي، بلا تفاصيل.

نادر تمنى أن يكون ما رآه مجرد ظلال. أو هلوسة. أو شيئًا عابرًا، يبرره التعب، أو الغبار، أو حتى الطقس. لكن لا شيء يبرر رجلًا بلا وجه، يقف عند ناصية شارع ضيق، ويهز رأسه بتوتر، كمن لا يجد المبنى الذي يبحث عنه.

رفع الرجل رأسه باتجاه نادر، وقال بصوت لم يصدر من فمه:

."هل تعرف مبنى 5؟"

لم يجب نادر. لا بسبب المفاجأة فقط، بل لأن صوته اختفى.

ابتعد الرجل بخطوات باردة، مثل آلة. كل خطوة تصدر طنينًا خافتًا في هواء الزقاق.
وعندما اختفى، كأن الهواء تنفّس.
لكن نادر لم يتحرّك. شيء ما في داخله تجمّد.
العرق، بارد وثقيل، تساقط على جبينه كحبّات مطر بطيئة.

ثم جاءه الآخر.
رجل عجوز، يبدو كأنه خرج من مشفى نفسي.
يركض نحوه من آخر الزقاق، يضحك بصوت متقطّع، يهذي بكلمات غير مفهومة، ويمدّ يده المرتجفة إلى كتف نادر.

."رجع، رجع... رجع يشمّهم."

ثم، فجأة، من دون تحذير، استدار ورمى جسده الهزيل تحت سيارة مسرعة.
صرخة السائق لم تطغَ على صوت العظام وهي تتكسر.

لكن نادر لم يقترب. لم يركض. لم يصرخ.
كان فقط ينظر... ويعرق.

وســيقف هناك دقائق طويلة قبل أن يجرؤ على مواصــلة طريقه نحو بيته، راكضً كرجل مجنون.

عند الباب، وبينما يبحث عن المفتاح بعصبية، سمع نباحًا ناعمًا خلفه.
التفت.
كانت هناك فتاة. بعمر 16 سنة. شعرها أسود طويل يغطي نصف وجهها، تلبس زيًّا مدرسيًا غير نظيف، وتركض على أربع.

تنبح.

ثم تتوقف، تنظر إليه. تلك النظرة... لم تكن بشرية.
دخل وأغلق الباب.

2

في اليوم التالي، عاد نادر إلى عمله في الطابق التاسع من المبنى الرمادي. الزجاج كان متربًا كعادته، والمكاتب صامتة كأن أحدًا لم يسكنها يومًا، والوجوه، رغم كل شيء، لم تتغيّر. لكنه هو... تغيّر.

الزقاق لم يغب عن باله. ولا الرجل. ولا صوت العظام.

فتح حاسوبه، جلس، وحاول أن يتظاهر بالانشغال. لكنه كان يحدّق فقط في الشاشة. لم يكن يقرأ شيئًا. لم يكن يكتب. كان يرى انعكاسه.

ثم حدث شيء غريب.

ظهرت زميلته سارة، تضع كوب قهوة على مكتبه.

قالت:

"نسيت تشرب أمس."

نظر إليها، لم يجب. لم يعرف إن كانت تمزح أم تعاتبه أم تقول الحقيقة. لكنه شكرها.

قالت:

"بالمناسبة، من كانت تلك الفتاة؟"

تجمّد.

."أي فتاة؟"

ـــ"التي كانت تقف عند باب المبنى، شـــعرها طويل، وتنبح؟ كنت تحدق بها، و... لا أعرف. هي مجنونة؟"

شعر بدمه يبرد.

"لا أعرفها."

هزّت كتفيها ورحلت.

في الاستراحة، قرر أن ينزل للدور الأرضي، أن يتفقد المكان بنفسه.

لكن ما إن دخل الممر الخلفي المؤدي لمخرج الطوارئ، حتى رآها.

راكعة على أربع. شعرها الأسود يسحب على الأرض. لسانها خارج فمها. تنبح.

ثم تنظر إليه. نفس النظرة.

ثم تركض نحوه. تجمد مكانه، وكأن قدميه زُرعتا في البلاط.

اقتربت بسرعة. زحفت. ركضت. لَعقت حذاءه. كأنها كلب.

عينيها... مثل ظلام مقبرة.

صرخ، ثم استدار وهرب. لم ينظر خلفه.

لكن النباح... ظل يتبعه.

3

في صـــباح اليوم التالي، جلس نادر في مكتبه المتقشّـــف بالطابق التاســـع. الجدران رمادية مثل صـباحات العاصـمة، والنيون فوقه يومض بشـكل مزعج، وكأن شـيئًا ما يعبث بالتيار.

لم ينم.

كلما أغمض عينيه، كان يرى وجه الرجل الذي بلا وجه. أو الفتاة التي نبحت، ثم زحفت نحوه. أو... الرجل العجوز الذي لم تكن جثته على الأرض حين عاد ليلاً ليتفقد المكان.

فتح جهازه، لكن الشاشة لم تشتغل فورًا. ظهرت للحظة ومضة. مجرد ظل أسود، على شكل يد، امتدّ ثم اختفى. ربما كان خللًا في الكهرباء، أو التعب. لا يهم.

."نادر؟"

كانت زميلته "منار".

تطرق على زجاج المكتب. نظرة فضول معلّقة في عينيها.

."أنت بخير؟ شكلك ميت رعب."

هزّ رأسه بلا كلمة.

ثم سألها فجأة، دون تفكير:

."تعرفين مبنى 5؟"

تجمّدت للحظة. ثم قالت بصوت منخفض:

ـ "لا تعيد هذا الرقم. لا يوجد أي مبنى بهذا الرقم. حتى أنه لا يوجد شارع يحمل هذا الرقم."

."لكن... أحدهم سألني عنه أمس."

ثم نظرت إليه نظرة طويلة. صامتة. ثقيلة. كما لو أن عينيها صارتا حفرة.

نادر. وقف هناك. يحدق بها. دمه يكاد يتجمد في العروق.

لكنه لم يعد يرى منال. لم يعد يرى فتاة.

ثم نَبَحت.

نبحة واحدة، قوية، اخترقت جسده حتى العظام وجعلته يرتج.

ثم هربت وهي تمشي على اربع.

نادر. وجهه شـــاحب مثل وجه جثة. عرق بحجم الفول يتحرج على أنفه، وبيد باردة يمسك بقلبه.

في وقت الراحة، قرر أن ينزل للدور الأرضي ويأخذ قهوته من الماكينة. يحاول أن يقنع نفسه أنه متعب. ربما شيئاً ما يضعه في هلوسة؟ مقلب مريض من اصدقاءه؟.

وهناك،

كانت منال. جالســـة على أربع. عند زاوية الاســـتقبال. لا أحد يراها، كأنها غير موجودة.

تلعق أرضية السيراميك مثل كلب حقيقي. ولما انتهت له، رفعت رأسها، وابتسمت... بفم ممتد أكثر من الطبيعي، ثم أخذت تقترب نحوه زحفًا.

."سامي... سامي... قلت لك أنه رجع يشمهم كلهم؟" همست.

لم يكن اسمه سامي. تراجع للخلف. اصطدم بحافة الجدار.

لكنها، قبل أن تلمسه، توقفت. ثم بدأت تنبح، تنبح كأنها تفهم معنى كل نباح.

وفجأة، ركضت واختفت خلف الباب الخلفي.

نادر لم يستطع أن يشرح ما يحدث. لكن شيئًا في الداخل أخبره أن هذه الفتاة ليست الأولى.

وأنه... لم يعد يعمل في مكان طبيعي.

ثم انفجرت أعصابه. صرخ:

"انتم مرضى. كل من يعمل هنا مريض".

زملائه الموظفين حدقوا به... ثم ضحكوا. ضحكات ممزوجة بالنباح.

4

عاد نادر إلى مكتبه كأن جسـده يُسـحب لا يمشـي، كأن الهواء صـار أثقل، والأرض أطول. كل شيء حوله صار غريبًا. الأصوات بعيدة، خطوات الموظفين صارت رخوة، مائية، كأنهم يمشون فوق طين رطب. حتى الوجوه التي يراها يوميًا، لم تعد هي.

فتح جهازه، ودخل إلى متصفّح الإنترنت وكتب:

"مبنى 5"

ثم فتاة تزحف وتنبح.

ثم رجل بلا وجه.

كلها أعطته نتائج عشوائية، أو فارغة.

لكن في الصفحة الخامسة من البحث، وجد رابطًا بعنوان:

"التكرارات المتطابقة: حالات التشابه في الهلوسات الجماعية"

فتح الصفحة.

كان مقالا بحثيًا قديمًا. لم يُحدث منذ 2011. يتحدث عن ظاهرة تسـمى "الطَيف المتنقّل"—كائنات تظهر بنفس الصـفات لأشـخاص من خلفيات وأماكن مختلفة: رجل بلا وجه، فتاة تزحف، أرقام تظهر في الأحلام، ثم على الجدران، ثم... في النهاية، في المرآة.

توقّف عند جملة:

"من رأى الرقم 5، لن ينساه. ومن نُبح في وجهه، لن يبقى كما كان"

في الليلة نفسها، نزل إلى البقالة أسفل البناية. المكان كان فارغًا، لكن الضوء مشتعل.

."أبو قاسم؟" نادى. ثم سمعه.

نباح. خافت أولاً. ثم أقرب. ثم، على يساره، رآها.

الفتاة.

لم تعد على أربع. كانت واقفة هذه المرة.

لكن ظهرها منحني، وذراعاها متدلّيتان، وعيناها، لمعتا مثل انعكاس ضوء داخل كهف.

تقدّمت نحوه.

."أنت... الوحيد الذي نُبح في وجهه حتى الآن."

تلعثمت شفتيه، أراد أن يركض، لكن قدميه لم تتحركا.

قالت:

."أبوك... اشتغل في مبنى 5، صح؟"

صُعق.

والده كان موظفًا حكوميًا. توفي قبل ١٠ سنوات في حادث حريق بمبنى قديم. لم يذكر أحد رقم المبنى.

لكن حين عاد للبيت، فتح صندوق صور قديم في الخزانة. وجدها.

صـــورة لوالده واقفًا أمام مبنى رمادي متهالك، وعلى الباب المعدني الصـــدئ، لوحة صغيرة مكتوب عليها: رقم "5"

كانت النهاية، أو ربما البداية.

5

جلس نادر أمام الصـندوق حتى الفجر. الصـورة بين يديه، ويداه ترتجفان. لم تكن ذاكرته تخدعه؛ لم يخبره أحد من قبل برقم المبنى الذي توفي فيه والده. كان مجرد حادث قديم، ملفّ مغلق، وتاريخ انتهى. أو هكذا ظن.

لكن الآن، الرقم يعود. والفتاة... تعرف.

ذهب للعمل متأخرًا. عيناه غائرتان، وجهه شاحب. دخل مكتبه، وأغلق الباب خلفه كمن يهرب من هواء العالم. من زملائه ومزاحهم المريض.

فتح البريد الإلكتروني. رسـالة واحدة غير مقروءة، بلا عنوان. فقط رقم في خانة المرسل:

5@voidmail.com

فتح الرسالة. لا يوجد نص. فقط صورة. لنفس المبنى.

لكن هذه المرة، الباب نصـف مفتوح، ويظهر منه ظلّ شـخص واقف في الداخل.

الظلّ يبدو... مألوفًا.

شعر بشيء خلفه. استدار بسرعة.

كانت فتاة من قسم الأرشيف، أو هذا ما افترضه، واقفة عند باب مكتبه.

قالت بصوت خافت:

ـ "في ملفات أبوك... نسيتموها بالمستودع القديم. عليك فحصها ورؤيتها قبل أن يتم التخلص من كل شيء."

."أي مستودع؟".

." بجانب مواقف الشركة. مكتوب عليه (لا تدخل)."

بعد ساعات، ذهب نادر إلى هناك.

الباب الحديدي صدئ، لكن لم يكن مقفلاً.

تجمد عند الباب فجأة.

من كانت تلك المرأة؟ كيف اخبرته عن هذا المبنى؟

ألقى شتيمة ليتشجع.

وفتح الباب بعصـــبية، والهواء الداخل كان مزيجًا من عفن وأوراق محروقة. دخل بحذر، وأضاء كشاف جواله.

وجد رفوفًا مائلة، صناديق ممزقة، وكل شيء عليه غبار عمره سنوات.

وفي الزاوية... خزانة حديدية صغيرة. فتحها.

كانت هناك ملفات باسمه، واسم والده، وتاريخ الوفاة. لكن المفاجأة.

في أعلى الورقة، ختم دائري صغير، بالكاد واضح:

"مراقبة السلوك المكرر – مشروع الطيف المتنقّل – وحدة 5"

صوت خطوات خلفه. استدار ببطء. الفتاة. نفسها. راكعة على أربع.

تلعق الأرض. ثم رفعت رأسها، ونظرت إليه.

قالت وهي تبتسم:

."أبوك لم يهرب. هو من استدعاهم. و أنت... حان دورك."

ثم نَبَحت. نباحها هذه المرة كان مختلفًا. نباح مألوف...

كأن قلبه يعرفه.

6

ركض نـادر، لا يـدري كيف خرج من المســتودع. لم يتوقف حتى وصـــل إلى بوابـة الشـــركة. لم يلتفت. لم يرد أن يرى إذا كانت تركض خلفه على أربع، أم تقف هناك تبتسم، أم زحفت من العدم إلى داخله.

دخل سيارته، أغلق الأبواب، وأدار المحرّك. لكن شيئًا لم يتحرك.
كل الأضواء اشتعلت مرة واحدة. الراديو بدأ يعمل وحده.

وصوت همس، ليس من محطة معروفة، همس أنثوي أجش:
."أبوك أول من نَبَح."
كأن الجدران حوله تنقبض.
."أبوك أول من لَبِسَ القناع."

ضغط على دواسة الوقود، فانطفأ كل شيء فجأة. فتح باب السيارة وركض.
في المساء، عاد إلى شقته ووجد الباب مفتوحًا قليلاً. كان يعرف أنه أقفله.
دفعه بهدوء، ببطء، والقشـــعريرة تســـري في عموده الفقري. الداخل كما تركه... تقريبًا.
لكن هناك شيء على الأرض. حذاؤه. مبلل باللعاب.
وورقة مطوية فوقه. فتحها.

"مبروك. اخترناك."

اتصل بالشرطة. اخبرهم قصته ودموعه لا تتوقف. كان يبكي. يصرخ في الهاتف.

الشرطة كانت تضحك فقط... ثم انتهت المكالمة. لم يصدقه أحد.

استلقى على السرير. منهك تماماً.

7

في الليلة التالية، حلم.

رأى نفســه يقف في مبنى مهجور. في الداخل، أشـخاص كثيرون، واقفون في طابور، وكلهم يلبسـون أقنعة جلدية تُخفي ملامحهم.

في نهاية الطابور، كانت الفتاة. تنبح. ثم تقف. تُشير إليه.

والكل يلتفت نحوه. وفي عيونهم شيء واحد:

"دورك."

استيقظ وهو يلهث، قلبه يخبط كالطبول .

ثم... طرق خفيف على باب شقته.

مرة... مرتين... ثلاثة.

اقترب، نظر من العين السحرية. لا أحد. لكن على الأرض، شيء موضوع بدقة.

كمامة جلدية. تمامًا مثل التي في الحلم. وملصق صغير بجانبها.

"مبنى 5 ينتظرك.

8

لم يعد يُخبر أحدًا. لا الشرطة، لا صديقًا، لا حتى نفسه. شيء ما في داخله استسلم. لم يكن يصدق، لكن لم يكن يُنكر. وكان هذا أخطر ما فيه: أن يعتاد.

في اليوم التالي، لبس بدلته دون وعي. لم يكن يوم عمل. لم تكن هناك دعوة. لكن قدماه قادتهما وحدهما.

قاد سيارته دون أن ينظر إلى الخريطة. الشوارع قادته. الإشارات فتحت له الطريق كأنها تعرف وجهته. وحين وقف أمام مبنى رماديّ عتيق، بلا لافتات، بلا نوافذ حقيقية، عرف أن هذا هو.

"مبنى 5".

الداخل لم يكن يُشبه الخارج.

رواق طويل، أبيض ناصع، مثل مستشفى أو مشرحة.

الضوء لا يأتي من مصابيح، بل كأن الجدران نفسها تضيء

سار نادر حتى رأى بابًا معدنيًا، وفوقه كاميرا تدور ببطء.

فُتح الباب وحده.

في الداخل، غرفة واسعة، خالية إلا من كرسيين وطاولة، وجلست هناك...

الفتاة.

شعرها أسود، طويل، لكنها هذه المرة لم تكن تزحف، لم تكن تنبح.

كانت ترتدي ثوبًا أبيض، نظيفًا، وابتسامتها هادئة.

قالت: "تأخرت."

جلس، دون أن يدرك لماذا.

نظرت إليه بعينيها اللامعتين، ثم وضعت أمامه شيئًا. "قناع".

قالت:

"لا أحد يدخل هذا المكان بوجهه الحقيقي."

."لماذا؟"

ابتسمت، ابتسامة طويلة، ثم تمتمت:

."لأن الوجوه... تُؤلم."

في اللحظة التالية، تهاوت الجدران. وصار نادر يرى ما خلفها.

كائنات بشرية تتحرك على أربع. رجال يضحكون ويبكون دون ملامح.

وأصوات تُهمس بلغة لا يعرفها. ثم رأى نفسه.

يضع القناع. ينهض. ويمشي. ثم... يركض على أربع.

وفي الخارج، في شارع مظلم، تحت ضوء مصباح معطّل، كان هناك شاب آخر.

يعود من عمله. يحمل قهوة باردة. ويمرّ من الزقاق نفسه.

وفي آخر الزقاق، يقف رجل بلا وجه.

الجزء الثالث

1

كان مبنى "رقم 5" يحمل من اسمه..
خمسة طوابق متداعية، عشرات الشقق المتلاصقة، مصاعد لا تعمل منذ سنوات، وســاكنون بالكاد يتذكرون ملامح بعضــهم. في الطابق الأرضــي، بالقرب من غرفة العدادات الكهربائية، كانت هناك مســاحة إســمنتية مظلمة تفصــل بين الجدار والدرج... لم يكن أحد يجرؤ على تنظيفها.
قالوا إنها كانت مخزنًا قديماً. وقال العجائز: "كانت فيه فتاة. اختنقت وماتت. لم يجدوا جثتها."
لكن الناس لم يكونوا يصــدقون. المبنى مزدحم جدًا لدرجة أن الرعب فيه لا يجد مساحة يتنفس منها. إلا أن شيئًا غريبًا بدأ يتكرر منذ أسبوع.
رائحة غريبة.

كل صــباح، كان أحدهم يفتح الباب ويشــمها. مزيج من العفن والرطوبة واللعاب. يقولون إن هناك كلباً ضالاً يعيش في أسفل المبنى. لكن أحدًا لم يره.

في ليلة الأربعاء، عادت **أم منير** من زيارة جارتها. وهي تصــعد، توقفت لتلهث عند الدرج، بين الطابق الأرضي والأول. وفجأة، سمعت الصوت.
"هَف..."
كان نباحًا خافتًا. لكنها أقســمت أنه لم يكن نباح كلب. بل نباح كأن هناك أحدًا **يتعلم** النباح.
نظرت إلى أســفل الســلم. الظلمة هناك لا يدخلها ضــوء، حتى في النهار. لكنها رأت شيئًا.

شعر طويل. أسود. يسحب على الأرض.
ثم يد — لا، ليست يدًا — شيء يزحف.
صرخت، لكنها لم تتوقف عن الصعود. وحين وصلت بيتها، أغلقت الباب مرتجفة.
"هناك بنت تحت الدرج! تمشي على أربع! وتشم البلاط!"
ضحك أولادها. وقالوا:

"أمي تهلوس من التعب."

2

في اليوم التالي، قال طفل صـــغير إنه رأى فتاة في البدروم. عارية القدمين. تزحف. وتلعق الحائط.
ضحك الجيران. قالوا إنه يشاهد رعبًا كثيرًا.

لكن في اليوم الثالث... بدأ الناس يسمعونها.
في الثالثة فجرًا، من تحت السلم، كان يأتي **صوت نباح. منتظم. رتيب. كأنه طقس.**
ثم... هدير.

ثم خربشة.

في البداية، تجاهلوه. لكن في إحدى الليالي، سمعوا جارة تصرخ.
ولما طرقوا الباب،

لم تجب. لكنهم سمعوا من الداخل **نباحاً بشرياً.**

3

في الطابق الرابع، الشقة رقم 5، كان يسكن العمّ أبو رشيد — رجل ستيني، أرمل، متقاعد من البريد، يقضي يومه بين الراديو، والنافذة، وأكواب الشاي الثقيل.

كان من القلائل الذين يتذكرون كل من سكن المبنى، ويعرفون تفاصيله الغامضة.

وفي تلك الليلة، حين سمع الصوت قادمًا من تحت السلم، لم يغلق النافذة كالعادة.

بل أطفأ النور، وفتح الباب بهدوء، وسار بخفّة إلى عتبة الدرج.

الصوت كان أقرب هذه المرة.

."هَف... هَف..."

ليس نباح كلب. بل نباح شخص. إنسان يتعلم كيف ينبح.

اقترب. سمع خربشة على الحائط. وشيئًا ما يلعق البلاط... لا، ليس يلعق، بل يتذوقه.

انحنى قليلًا، فرأى ظلًا صغيرًا.

ثم عيناها.

عيناها كانت تشعّان بضوء خافت. أخضر. كما لو أن الكهرباء لا تسري في المصابيح، بل في نظرتها.

لم تصرخ. ولم تهاجمه.

بل نظرت إليه فقط، كما لو أنها تعرفه. ثم همست بصوت رطب، مبحوح:

."أنت من أغلق الباب؟."

تراجع أبو رشيد ببطء. وكأن مفاصله تحجرت. رد بصوت مهزوز.

"أي باب؟"

زحفت نحوه على أربع. بصمت، بثقة، وكأنها لم تكن تزحف بل تنزلق. ثم قالت:

."كنت أول من تركها هناك."

أبو رشـــيد، وقف هناك مثل حجر. يحدق بها بعيون عريضـــة. يده على قلبه. يكاد يصاب بجلطة.

ثم... قفزت **ولحست يده.**

لعقها طويل، ساخن، محموم. لدرجة أن جلده احترق بعدها بيوم كامل.
صاح. وركض إلى شقته،

طار فوق الدرج كما لو أنه شاب في العشرين.

وأغلق الباب بسبع مزاليج.

جسده يرتعش من الخوف.
العرق يتدحرج بلا توقف. يلهث.

بعيون واسعة مثل بيضتين مسلوقتين. يحدق بالباب.
الباب.. الذي أغلقه.
باب شقته... لم يُغلق.

ظلّ مواربًا. يُفتح ببطء. بصرير مرعب. والهواء البارد تسلل منه ببطء.
هناك..

شيء يزحف بشكل مريض يقترب من الباب.

4

في اليوم التالي، لم يظهر أبو رشيد.

ظنوا أنه مريض.

لكن أحد الجيران قال إنه رأى شيئًا عند باب شقته عند الفجر:

لســان بشــري طويل... مبلل... ممدود من الداخل إلى الخارج، كما لو أن أحدهم تركه كتحذير.

سخر الناس من كلمات الجار. ولم يهتم أحد به أحد.

ولكن **هبة** كانت فضــولية بطبعها. وقفت **هبة**، طالبة الطب، التي تســكن الطابق الرابع، أمام الباب الموصد، ووضعت أذنها على الخشب.

كان هناك صوت.

ليس بكاء، ولا نحيب، ولا صراخ. بل صوت لعق متواصل.

ومع كل لعقة، كان هناك نَفَس.

ثم...

."هَف."

صرخت هبة، وركضت، ولم تعد إلى شقتها تلك الليلة.

في منتصف الليل، انطفأت كل أضواء المبنى دفعة واحدة.

حتى المولد.

حتى هواتف السكان.

وأتى الصوت...

من كل الاتجاهات.

"هَف"

"هَف... هَف... هَف..."

نباح بشري. متعدد الطبقات. نسائي، طفولي، رجولي... كلهم ينبحون.

وفي الطابق الأرضي، وقف **سمير**، حارس العمارة، يضيء مصباحًا يدوياً، يبحث عن مصدر الصوت.

صرخ:

"من هناك".

لكن ما رآه لم يكن كلباً.

ولا فتاة.

بل شيء... زاحف. **ذو أربع سيقان بشرية.** ووجه ليس له ملامح، بل فقط **فم بحجم وجهه**، مفتوح، يلهث.

سـمير لم يهرب، لم يتحرك. وقف هناك يهتز. من تحت بنطلونه انفجر البول مثل فيضان.

قال له الشيء:

."أين الدفتر؟"

أغمض عينيه حتى لا يرى. حاول أن يحرك فمه :

"أي دفتر؟"

"الذي سجّلت فيه اسمها. الشقة رقم 0. هي لم ترحل."

ثم نبح... مرةً واحدة.

لكن تلك النبحة كانت قوية كفاية لأن ينهار المصـباح من يده. وينطلق هارباً، والبول يتناثر في كل مكان.

ثم... يُفتح الباب رقم 4 وحده.

5

لم يكن أحد يعرف بوجود شقة تحمل الرقم "0".

لكن **سمير**، حارس المبنى، حين فتش سجلات الإدارة القديمة – تلك الأوراق الصفراء الملفوفة بخيوط سميكة – وجد اسمًا واحدًا غير مكرر:

"نور بنت سُعاد" – الشقة 0 – المدخل السفلي.

كان التاريخ مطموسًا، والرقم القومي غير مكتمل. وتحت الاسم بخط مختلف، كُتب:

"أُغلِقت بعد حادثة هلوسة. لا يُفتح الباب أبداً."

وقبل أن يتخذ قرارًا بتمزيق الورقة، سمع شيئًا يسقط على الأرض خلفه.

استدار.

لم يكن شيئًا، بل **لسان بشري**. مشقوق من الطرف، كما لو أنه تعرض للقضم.

رفعه دون وعي، فوجد على باطنه كلمات صغيرة محفورة:

"رجعت."

6

في الصـــباح، زاد الحديث عن أصـــوات النباح. لكن شـــيئًا واحدًا كان مشـــتركًا بين السكان:

كل من سمع الصوت، حلم بنفس الحلم.

كانوا في الممر تحت الدرج، يمشـون على أربع، والفتاة أمامهم، تلعق الأرض وتضحك. وتقول:

."النباح بداية اللغة... لا أحد يتكلم إلا بعد أن ينسى شكله."

أم خالد، وهي أرملة تبلغ السـتين، أقسـمت أنها رأت حفيدها في المنام يمشي على أربع ويلحس الرخام.

الطفلة منى، ابنة الجيران، استيقظت وهي تنبح، ورفضت الكلام لثلاثة أيام.

لكن الأبشع،

أن *هبة* – الطالبة في الطب – صـورت فيديو بهاتفها المحمول وهي تحاول تسـجيل صوتًا من تحت الدرج.

لكن حين راجعت التسجيل، لم تجد صوت النباح.

وجدت نفسها فقط.

وهي تنبح وتمشي على أربع.

7

قرر السكان أخيرًا أن يواجهوا "الطابق السفلي".

اجتمع خمسة منهم: سمير الحارس، هبة، أم خالد، شاب اسمه حسام، والعمّة أم ندى التي تعرف كل قصص الحيّ.

نزلوا معًا، مصابيح يدوية، وأدعية قصيرة على الألسن.

كان الباب تحت السلم مختفياً خلف ألواح خشبية قديمة، وعليه مسامير صَدئة.

لكن الأغرب أنه لم يكن مقفلاً.

بل كان مواربًا.

فتحوه بهدوء.

بداخله، درج حجري ينزل إلى ممر ضيّق، لا يتجاوز المتر عرضًا. الرائحة كانت رطبة، محمّلة باللعاب والبول والعفن.

ومع أول خطوة... سمعوا النبحة.

لكنها لم تكن واحدة.

كانت نباحة جماعية.

ثم ظهرت الفتاة.

تسحب شعرها على الأرض، تمشي على أربع، لسانها يتدلّى، وعيناها تلمعان مثل نار شمعة.

قالت لهم دون أن تفتح فمها:

ـــ "أنتم من نسيتوني. أنا بنت هذا المبنى. أنا أول من لعق الأرض... أول من نَبَح... أول من تَرك."

ثم توقفت، ونظرت إلى **أم خالد** مباشرة.

وقالت:

."أنتِ أغلقْتِ الباب عليّ... وأنا أُغلِقت في جسد الكلب."

أم خالد فقدت وعيها في اللحظة نفسها.

والجدار خلف الفتاة تشـــقق، فظهر باب صـــغير، مغطى بالخدوش والدم الجاف، ومكتوب عليه:

"غرفة النُباح"

رفع حسام المصباح اليدوي نحو الباب، وقال بصوت يحاول أن يتماسك:

"ما هذا؟"

ردت الفتاة:

"غرفتي."

ثم نظرت إلى **سمير** الذي يحدق بها بعيون عريضة. وقالت:

"أنت كتبت اسمي. أنت سجّلتني. أنت... فتحت الباب."

وعندما اقترب منها خطوة شجاعة... **قامت على قدمين. ثم...**

قالت:

"رجعت."

سمير تراجع بخوف.

8

كان الباب الصغير ينبض.

ليس مجازًا. بل فعليًا.

كل من اقترب منه شعر بنبض خافت ينسحب من الخشب، كأنه قلب حيّ مدفون داخل الجدار.

سمير وضع يده عليه، وسحبها فوراً. **دافئ** ليس كالحجارة، بل كجلد طفل مصاب بالحمى.

قالت الفتاة بصوت أشبه بنَفَس لا يخرج من فم بشر:

"من يدخل.. لا يخرج... ومن يسمع، لا يتكلم بصوت بني آدم."

حسام لم يهتم بالهراء الذي تقوله. كان تركيزه على الباب. حاول فتح الباب، لكن المقبض لم يكن مقبضًا. بل كان **لسانًا متخشبًا**، وعليه أسنان صغيرة كالمسامير.

ولأول مرة منذ نزوله إلى هنا... أحس بعظامة تبرد.

أدارت **هبة** المصباح اليدوي نحو **حسام**. كان وجهه شاحباً مثل جثة. لم تسأله. لم تهتم. أرادت منه أن يعاني ويموت. لقد رفضها. رفض الزواج منها. فقط.. لأنه لا يريد فتاة تدرس مع الرجال. ولا يريد امرأة جامعية.

أدارت المصباح نحو الزاوية، فلاحظت شيئًا لم يكن هناك قبل لحظات:

أرجل بشرية، معلّقة من السقف، كأنها أرجوحة.

تراجعت بخطوات عصبية. ثم نظرت إلى **حسام** بنظرة متعجرفة. كما لو أنها تسخر من وجهه المرعوب.

أما عن الفتاة التي تنبح. الموجودة بينهم. لم تشـعر بالخوف منها. كانت فتاة مريضـة نفسياً.. لماذا تخاف منها؟ لم تكن مثل **سمير** الذي كان يراقب الفتاة برعب خالص.

ثم صدرت النبحة الأولى... طويلة، رخوة، حزينة.

تبعها صدى... ثم أخرى.

ثم...

فُتح الباب وحده

9

الداخل كان صغيرًا.

غرفة بحجم خزانة، جدرانها سوداء، لكن ليست مدهونة... بل محترقة.

في الزاوية، قفص مكسور، ودفتر صغير على الأرض، مفتوح على صفحة واحدة:

"نور بنت سـعاد – حُبسـت هنا لأنها لا تنطق إلا نباحًا. طُلب من الحارس إسـكاتها. فمات. وأُغلِق الباب."

أم ندى وضعت يدها على فمها وقالت:

."أنا... كنت هنا. أذكر هذا. لكن... قيل لنا أنها بنت مجنونة. قُفِل الباب ولم يُفتح."

ردّت الفتاة، وهي تزحف ببطء نحو الدفتر:

" قالوا أن اسـمي **نور**. لم أكن مجنونة. كنت أسـمع أصـوات الأرض. كانت تهمس لي... وتضحك. قالت لي الحقيقة."

سألت **هبة**، رغم رجفانها:

"أي حقيقة؟"

قالت نور:

"أن الكلام كذب. أن أصـوات البشـر مجرد ضـوضـاء، وأن أول لغة خُلِقت... كانت النباح."

ثم همست:

"حين يخرج الطفل من بطن أمه، لا يتكلم بل ينبح."

شيء في كلماتها

جمد الدماء في عروقهم.

فجأة.

انفجرت الجدران بصوت مكتوم. لم تتشقق. بل انفتحت كأنها شفتان

خرج من الجدران ضوء أحمر. وضباب رمادي. ورائحة... دم ساخن.

ثم... خرجوا

سكان قدامى. أموات. بلا ملامح. يسيرون على أربع. من أفواههم تخرج أصوات لعقات مستمرة، وألسنتهم تصل إلى الأرض.

كل واحد منهم، على جبينه، كلمة مكتوبة:

صامت

قالت نور:

"من سمعني ولم يُنقذني... صار نباحه داخلي. وكل ليلة، أخرج لأعيدهم إليّ."

تقدمت نحو **سمير**، ولم تهاجمه.

بل اقتربت ببطء، ثم همست:

"كنت أول من كتب اسمي... وستكون أول من يحمله."

ثم... دخلت فيه.

لا، لم تهاجمه بل قفزت... اختفت في جسده. مثل مارد يدخل مصباح.

تشنج **سمير**، ثم انخفض على أربع، وبدأ يلهث. ثم أخرج لسانه...

ثم نَبَح.

نبحة واحدة... اهتزت لها المصابيح. وانفجر منها الصراخ والبكاء.

هرب الجميع.

هبة، حسام، أم ندى، بل حتى أم خالد التي استعادت وعيها وسط كل الفوضى.

وسط الصراخ. وسط أقدام سمينة تهرس ظهرها.

لكن خلفهم... بدأ النباح يتكاثر.

من تحت السلم.

من خلف الجدران.

من **خلف أبواب الشقق.**

نباح نساء، أطفال، رجال.

نور خرجت أخيرًا من الجدران، على شكل ظل يزحف، يلعق، يبتسم.

وقالت بصوت داخلي يسمعه كل ساكن في المبنى.. يسمعه في رأسه:

."من لم يصرخ... سيبدأ بالنباح. ومن نبَح مرة، لن يسكت أبداً."

10

لم يكن حسام يتوقع أن ينجو من تلك الليلة، لكنه فعل.
وهذا هو أسوأ ما في الأمر.

الموت كان سيكون حلاً نظيفاً، نهاية قصيرة. أما النجاة؟ فكانت خيطًا مبللاً باللعاب، يسحبك كل يوم نحو نفس النقطة... تحت السلم.
منذ تلك الليلة، صار يسمع الصوت من داخل جسده.
ليس نباحًا. بل لعقًا.

نَفَس خافت، مبلل، يتكرر في داخله. ليس في أذنه، ولا في ذاكرته. بل بين ضـــلوعه. لعقة، ثم ثانية... ثم لهاث.

وفي الليلة الثالثة، اسـتيقظ ليجد نفسـه في المطبخ، راكعًا على أربع، ولسـانه ممدود على البلاط.

كان الطعم صدئًا. وغريبًا. كأنه يعرف هذه الأرض من قبل.

11

هبة لم تعد تجيب على الهاتف. لم تعد تفتح باب شقتها. سُمع أنها تركت المبنى.
لكنه يعرف أنها لم تفعل.

رآها، قبل يومين، تمر في الممر بين الطابقين الثالث والرابع.
تمشي كأي شخص... تقريبًا.
إلا أن حذاءها كان مبللًا، ولسانها يخرج من فمها لثوانٍ كلما ظنت أن لا أحد يراها.

وفي الليل، سمعها.
تنبَح في الحمّام.
نبحة واحدة. قصيرة. لكنها ليست صوتها.
كانت نبحة أمها.

وأمها متوفاة منذ عامين.

12

في اليوم السـابع، وجد "عبد الرحيم" – العامل الذي ينظف السـلم كل صـباح – جثة قطة على الدرج.

ليست ميتة كما يجب.

بل **مفتوحة من الظهر، وملفوفة بلسان طويل.**

وعلى الجدار، كتبت كلمة بلعاب كثيف:

"الحيوان الأول ليس هو الكلب."

ضحك بعض الجيران. سخروا، قالوا إنها لعبة أطفال. لكن **حسام** لم يضحك.

لأنه حين رأى الكتابة، **شعر بجوع.**

رغبة غريبة في أن يلمس الحروف... بطرف لسانه.

كـاد يـفـعـل، لـكـن صـوتًـا داخـلـه هـمـس:

."إن لم تلعق... ستُلعق."

في الليل، لم يستطع النوم.

غرفة نومه كانت تمتلئ برائحة الأرض... كأن تحت السرير أحدهم يحفر.

فعلاً... كان هناك صوت حفر. ليس بمسمار. بل بأظافر.

فجأة، توقف الصوت.

ثم سمع أنفاسًا.

بطيئة، رطبة، تكاد تبكي.

ثم صـوت فتاة... ليسـت غريبة. **يعرفها. كانت تجلس خلفه في المدرسـة المتوسـطة. ماتت في حادث قبل عشر سنوات.**

قالت:

."كنت أريد فقط أن أتكلم. لم أجد لغة. النباح هو آخر الكلمات التي لا تحتاج إلى إذن."

ثم شعر بشيء حار على قدمه.

التفت.

كان هناك لسان. طويل. حي. يلعق إصبعه الأصغر.

صرخ، فقفز اللسان عائدًا تحت السرير، مثل كائن يعرف طريقه.

لكنه لم يُطفئ النور بعد ذلك.

في اليوم التالي، وجد سمير – الحارس – يجلس في بهو المبنى.

لم يكن يتحرك. كان فقط **ينبح... كل عشر ثوانٍ.**

نبحة قصيرة. كأنها إشارة، لا أكثر.

وعلى صدره، عُلّقت ورقة مكتوب عليها بخطٍ غير بشري:

"هو من كتب اسمي الحقيقي"

اقترب منه حسام.

وسأله، بصوت مرتجف:

."ما الذي يحدث؟ من هي نور؟ هي من الجن؟".

لم يرد.

لكن سمير أخرج لسانه، ومدّه ببطء على البلاط.

ثم... كتب به:

"ليست بنتًا. إنها بقايا صوت لم يُفهم... فصار يلعق ليسمعوه."

.

13

في الليلة التي سبقت الحريق، اجتمع كل من تبقّى في المبنى في الطابق السفلي.

لم يأتوا بوعي. لم يُنادِهم أحد.

لكنهم جاؤوا، واحدًا تلو الآخر، في صمتٍ مطبق.

كانت الأرض هناك دافئة. أكثر دفئًا من المعتاد.

ورطبة. كأن المبنى **يتنفّس** من تحته.

كان الباب إلى "غرفة النُباح" قد اختفى، أو ذاب، أو لم يعد موجودًا. لكنه كان **مفتوحًا**، بطريقة لا مرئية.

وداخله... كانوا بانتظارهم.

الذين لَعقوا.

الذين تخلّوا عن اللغة.

الذين اختاروا ألا يشرحوا ما يشعرون به، بل أن **يحكّوه بألسنتهم** على البلاط، على الجدران، على أي سطح يملك ذاكرة.

وهناك، وسطهم، وقفت **نور**.

لم تكن تمشي على أربع. ولم تكن تزحف.

بل كانت **تُشرف** عليهم، كمعلمة لغة قديمة، تنظر إلى تلاميذها الذين نسوا الكلام واختاروا الأصوات.

قالت:

"أول لغة خلقها الإنسان كانت الصراخ... لكن عندما جاع، نبح. وعندما فَقَد، لَعق. وعندما خاف، صمت."

ثم أشــارت إلى جدار إســمنتي، ظهرت عليه كلمات بلون غامق، وكأنها مكتوبة بالدم الجاف:

"أنا بنت. لســتُ من بني آدم. أول مرة. كنت جُرحًا فصــارلســانًا. ثم صــرتُ نبحة. والآن... أريد أن أتكلم."

14

هبة كانت هناك.

وحسام.

وأم خالد.

وحتى ســمير، راكعًا، بعينين دامعتين ولســان لا يتوقف عن الخروج والدخول كأن جسده لم يعد يملك سيطرة.

نور مشت بينهم. لا تلمسهم، فقط تنظر.

لكن في كل نظرة، يتغير شيء فيهم.

حسام، الذي كان يرتدي نظارته منذ سنوات، خلعها فجأة، ثم... **قضمها بأسنانه**.

هبة مدت يديها إلى الجدار، وبدأت تلعقه ببطء، كما لو أنه والدها الغائب.

أم خالد... كانت تبكي. لكن بدل الدموع، كان يســيل من عينيها **لعاب أبيض**، كأنها وصلت للنهاية.

وقالت:

."أنا التي تركت نور. كنت جارتهم. قلت لأمها: احبسيها تحت، حتى تتعلم الأدب."

ردّت نور، بصوت لم يصدر من فمها، بل من الهواء حولها:

."وأنا تعلّمت الأدب. تعلّمت كيف أسكت إلى أن يُطلب مني النُباح."

ثم همست:

."لكن لا أحد طلب... فنبحت وحدي."

15

ظهر الباب مرة أخرى.

لكن هذه المرة، لم يكن بابًا من خشب أو حديد.

كان من **جلد**.

جلد إنسان. عليه بصمات أصابع، وخربشات أظافر، وآثار لعق كثيرة.

وعليه جملة واحدة:

"من يدخل... يتذكر صوته الأصلي."

نور وضعت يدها عليه. لم تدفعه. لم تفتحه.

بل **لَعقته.**

والباب انفتح وحده.

وراءه، لم يكن هناك غرفة.

ولا ظلام.

بل **صوت.**

صوتٌ واحد، مستمر، غير مفهوم، أشبه بصوت طفلٍ يحاول أن يتكلم لكن لا يملك كلمات.

ثم بدأ المبنى يهتز.

ليس بقوة. بل كارتعاشة مريض قبل الموت.

وقال شخص ما – لا أحد يعرف من قال:

."المبنى ليس مبنى. بل فم. وكلنا كنا داخله."

16

في فجر اليوم التالي، احترق المبنى.

لكن دون نار.

تفحّمت الجدران. اختفى سكان الطابق الأرضي.

وأرسلت البلدية تقريرًا قال فيه:

"لا وجود لسجل باسم نور بنت سعاد. لا يوجد طابق سفلي. ولا شقة رقم صفر. ولا باب تحته درج. المبنى يحوي 5 طوابق فقط، وكلها خالية من السكان. خالية من الجثث"

لكن الناس عرفوا.

الذين مرّوا من هناك، **سمعوا النباح**.

في وقت الفجر.

ثلاث نبحات، متقطعة.

ثم لعقة طويلة... على الرصيف.

كأن أحدهم يحاول أن يتكلم... لكنه اختار أن **يترك لسانه على الأرض، بدل أن يشرح.**

18

لم ينتهِ كل شيء بالحريق.

بل بدأ الصمت.

لثلاثة أيام، انتشرت أخبار متفرقة في الصحف والمواقع المحلية:
"رجل يزحف في طريق عام في الزلفي، يلعق الإسفلت ويهمس بكلمة:
صفر
طفل في نجران عُثر عليه راكعًا في زاوية مسجد قديم، يلعق الجدار ويبكي بلا صوت.

امرأة مسنّة في جدة تزحف في سوق السمك، وتنبح كل عشر ثوانٍ.
الشرطة لم تفهم شيئًا. التحاليل قالت إنهم **بصحة تامة.** لا مرض نفسي، لا إصابة دماغية. لكنهم... **نسيوا الوقوف**.
المشترك بينهم: لا يتكلمون، لكنهم يلعقون الأرض باستسلام. وكأنهم يعاقبون أنفسهم.

وكل واحد منهم... كان من سكان "مبنى رقم 5".

18

في تلك اللحظة، طُلب من الشيخ خالد **السالمي** التدخل.

كان معروفًا في منطقته، ليس فقط بالرقية، بل بقدرته الغريبة على معرفة أصـــل المشكلة المتعلقة بهذه الأمور.
دخل الشيخ على أول حالة.

رجل في الأربعين، يزحف في غرفة باردة، وعيناه فارغتان.

قرأ عليه الفاتحة، ثم آيات من سورة الجن، ثم آية الكرسي.

في البداية، لم يحدث شيء.

ثم فجأة، انكمش جسد الرجل، وبدأ يرتجف.

وخرج صوته:

."أنتم من ربطها... أنتم من ناداها... ثم نسيتم أن تُطفئوا الباب."

توقف الشيخ **خالد** عن قراءة القرآن.

"من؟ من ربط من؟"

الرجل لم يرفع رأسه، لكنه قال بوضوح:

ـ "الفتاة ليست بنتًا. هي من الجن. وُلدت في الدرج... من استحضار خاطئ. من قراءة فتحت بابًا لم يُغلق."

19

التحقيقات عادت إلى بدايتها

وربطوا الخيوط:

قبل 18 ســـنة، ماتت امرأة تُدعى "ســـعاد" في نفس المبنى، بعد أن قيل إنها كانت تمارس **تحضير الجن** وتكتب عزائم في دفتر صغير.

جيرانها أخبروا الشرطة يومها أن "ابنتها نور" كانت تتكلم مع الهواء، وتضحك وحدها في الزاوية.

لكن الملف أُغلق تحت بند "انهيار نفسي"

الآن، اتضـح أن "**نور**" لم تكن ابنتها. بل كانت الكيان الذي اســتُحضِــر... ثم سُــمي باسم لا يخصه.

وما فعله الناس، بعد أن خافوا، أنهم ربطوها بالمكان.

دفنوها تحت الدرج. أغلقوا الباب. ومضوا في حياتهم.

لكنها بقيت هناك... في المبنى.

20

قال الشيخ خالد، بعد جلسة مطولة مع المصابين:

"لم يكن مسًّـــا عاديًا. بل ربطًا. الجنّية التي دخلت المبنى لم تكن عادية، بل أرادت أن تُفهم... فلما تجاهلوها... وربطوها في المبنى تشـيطنت. لعنتهم بالصـوت الذي لا أحد يفسّره."

ثم رفع عينيه، وقال:

ـــ "النباح... ليس تقليدًا للحيوان، بل سحر قديم بلغة بدائية يمارسـها الجن. لعق الأرض ليس خضـوعًا، بل طقوس اسـتحضـار... يمارسـها السـحرة والمشـعوذين، والعياذ بالله "

ثم...

بدأت الرقية على من تبقّى من المصابين.

بعضهم صرخ. بعضهم بدأ ينزف من الفم. بعضهم... انشق لسانه نصفين.

لكن شيئًا واحدًا حدث للجميع:

في لحظة معينة من الرقية... كانوا يلتفتون ناحية الجنوب، ويتنفسـون ببطء، ثم يقولون نفس الجملة.

"الفتاة ما زالت هناك. تحت الدرج. تنتظر من يســمعها... لا من يخرســها.. تحاول الخروج من هناك".

قال أحد رجال الأمن:

."لكن المبنى احترق."

فرد الشيخ خالد:

."المبنى كان فمًا. والفم لا يحترق... بل يصمت فقط."

21

مرت سنتان على الحريق.

المبنى لم يُعاد بناؤه. تحوّل إلى أطلال مطوّقة بشـريط أصـفر، تعيش داخله القطط والكلاب السـوداء.

الناس نسـوا.

كما يفعل الناس دومًا.

لكن الأرض لا تنسى.

ولم يكن أحد يعلم أن طفلة صـغيرة — **ابنة الحارس الجديد لمبنى مجاور** — كانت تلعب هناك كل صباح.

ولم يكن أحد يعلم أنها، في أحد الأيام،

بدأت تنبح وهي ترسم دائرة على التراب.

كانت والدتها تظنها تقلّد الكلاب.

لكن النباح كان **منتظمًا**. موزونًا. كأنها تكرّر شيئًا ما تلقّته.

22

في اليوم التالي، هربت الطفلة من المنزل.

عثرت الشــرطة عليها في مدينة أخرى، تبعد 170 كيلومترًا. كانت تمشــي **على أربع**، وسط محطة بنزين مهجورة، وتلعق الأرض بهدوء، فيما تهمس بكلمات غير مفهومة.

أخذوها إلى المستشفى.

وحين سألها الطبيب عن اسمها، لم تجب.

لكنها رسمت، بإصبعها، كلمة غريبة على السرير:

"زحف."

عاشــت الطفلة في مصــح نفســي لمدة 18 ســنة. تلقت العلاج هناك. طبيب يرتدي ملابس مصنوعة من أوراق البقدونس كان طبيبها الخاص.

أعجبها هذا الطبيب... الذي كان يبتســم إليها بهدوء كما لو أنه يعرف مما هي مصنوعة، ويعرف كل أسرارها، وفي نفس الوقت كان هذا الطبيب يجعلها تشعر أنه ليس من هذا العالم...

ثم...

في فجر ليلة، انقطعت الكهرباء في المصحّة التي وُضعت فيها.

وفي تمام الســاعة 3:33 صــباحًا، كشــفت الكاميرا الحرارية بابًا خلفيًا لم يكن أحد يعرف بوجوده، وخرجت منه الفتاة.

لا تمشي.

بل تركض على أربع.

ملابسها تتمزق، شعرها يلتف حول كتفيها، ولسانها ممدود خارج فمها.

وتطلق أول نبحة... حقيقية.
نبحة لا يصدرها حنجرة بشرية. بل شيء مختلط. شيء يشبه ذاكرة كائن أقدم من اللغة.
على سطح المصح النفسي. وقف الطبيب. بملابسه المصنوعة من أوراق البقدونس. يشاهد الفتاة تركض بابتسامة هادئة....

ركضت الفتاة في الطرقات. عبرت المدن. وتوقفت فقط عند **بوابة جامعة قديمة في الشمال**.

وقف الحارس مذهولًا.
الفتاة تمشي على أربع وتلعق الباب الحديدي.
وعلى الجدار، تكتب شيئًا بلعابها:
"رجعت."

نُقلت الفتاة الفقيرة المسكينة إلى قسم الأمراض النفسية في الجامعة، دون سبب واضح. ولم يدقق أحد في التفاصيل.
تناوب الأطباء على مساعدتها بالمجان، دون الخوض في تفاصيل حياتها أو من أين جاءت، ولا كيف وصلت، ولا لماذا **تنظر دومًا إلى شجرة واحدة فقط** في الحديقة الخلفية للمبنى.

الشجرة نفسها التي جلس تحتها الدكتور سامر عبد المجيد قبل سنوات طويلة.

وفي تلك الليلة... كان الدكتور سـامر قد وصـل إلى غرفته للتو، بعد أن تسـلّم عمله الجديد.

وكان أول ما لفت انتباهه، عبر نافذة الغرفة رقم 5...

فتاة شاحبة، شقراء، تزحف على أربع، وتدور حول الشجرة.

ثم نظرت نحوه مباشرة.

و ابتسمت.

تمّت

للتواصل مع

الدكتور بقدونس

dr.baqdunis@gmail.com